GIEM

السيرة النبويّة الإقتصاديّة

عرض تحليلي للسيرة النبوية الشريفة من الجانبين المالي و الاقتصادي

تأليف الدكتور
عامر محمد نزار جلعوط

تقديم الدكتور
سامر مظهر قنطقجي

الاقتصاد النبوي في سيرة النبي الأميّ محمد صلى الله عليه وسلم

الاقتصاد النبوي في سيرة النبي الأميّ محمد صلى الله عليه وسلم

د. سامر مظهر قنطقجي

رئيس تحرير مجلة الاقتصاد الإسلامي العالمية

تميزت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سائر سير البشر؛ فليس من أحد في التاريخ الإنساني قد وثقت سيرته بالتفاصيل الصحيحة والدقيقة، كما هو حال سيرة رسول الهدى صلى الله عليه وسلم؛ فمن يقرأ السيرة؛ يشعر أنه يعيش مع صاحبها زمانًا ومكانًا؛ ويا له من عيش جميل.

لقد بنى الهادي صلى الله عليه وسلم أمة عظيمة، حققت مجداً منذ أيامها الأولى وما زالت تحققه، بدأ المجد بنفسه، ثم بزوجته وصاحبه رضي الله عنهم، ثم ازداد عدد المسلمين وزادت عدتهم، عانوا وذاقوا الكثير من الضنك والتعب، لكن ذلك لم يثنهم عن نشر دين الله تعالى: الغاية الأسمى. أقاموا المجتمع الإسلامي الفاضل، ثم أقاموا الدولة العادلة، وتوسعت تلك الدولة لتشمل أكبر بقعة جغرافية في التاريخ الإنساني بعمر تجاوز الأربعة عشر قرنًا حتى الآن، وهذا ما لم تصل إليه أية حضارة في التاريخ. لذلك ثبتت صلاحية المنهج الإسلامي في المجتمعات، ولو لم يجمعها كيان مستقل، وثبتت في الكيان الكبير الواحد، وكذلك في الكيانات المتعددة كما هو حال اليوم. ولا يُنظر إلى حال بعض المسلمين في هذه الأيام، فسنن الله غالبة لا مغلوبة، فإذا تخلف البعض عن تلك السنن أصابه وبال عمله، فالأيام دول، ولا يخرج المسلمون عن غيرهم من البشر في تطبيق تلك السنن. ولابد من العودة إلى المنهج الرشيد كما حصل في زمن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

لم يهتم السراج المنير صلى الله عليه وسلم بجانب من جوانب الحياة دون غيره، فلا حياة اجتماعية دون اقتصاد، ولا اقتصاد دون حياة اجتماعية عادلة، فدوام أي بناء منوط بتوازنه – وقد أثبت التاريخ فشل نظم أخرى عديدة فضلت جانباً على آخر –؛ ثم لابد من جمال يزين هذه الحياة المتوازنة ليسعد من يعيش فيها.

لذلك يجب دراسة السنة النبوية الاقتصادية للتعرف على مراحل إقامة الاقتصاد النبوي إلى جانب الحياة الاجتماعية، والمفيد في ذلك أن خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم انطلق في تحقيق غايته من نفسه فكان قائداً لا تراه إلا في الصف الأول وليس آخره، ثم أوجد مجتمعًا تنامى عدده وعتاده تباعًا، هاجر بعضهم، ولما صعبت عليهم إقامة كيان يخصهم هاجروا جميعهم، وبنوا مدينة منورة؛ ثم انطلقوا إلى جميع أصقاع الأرض لينشروا الدين الحنيف، وفي كل ذلك عبر كثيرة؛ فإقامة المجتمع الفاضل والمدينة الفاضلة كان واقعيًا لا نظريًا، والمتتبع للسيرة يرى كل ذلك بعينه بالدليل الثابت، يرى كيف نجح المعصوم صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام وكيف أخفقوا، مرات ومرات، لكنهم لم ييأسوا ولم تذهب ريحهم.

قدم صاحب الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم نماذج فريدة، وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، فبعد أن نزل عليه القرآن الكريم من رب العالمين بواسطة جبريل عليه السلام، حفظه وطبقه، واستقى منه علومًا كثيرة، ولم يكن لديه مصدراً آخر غير ذلك.

لقد تعلم من القرآن الكريم درجات الحقيقة العلمية ومناهج التفكير العلمي والعلم الظني وصولا إلى الشك فالوهم، وتعلم الإحصاء وتوظيفه لاتخاذ القرار[1]، وقدم صوراً رائدة في علوم الإدارة وتطبيقاتها ودليل ذلك النقلة النوعية التي حققتها الأمة في زمن قياسي؛ فدعوته صلى الله عليه وسلم استغرقت ثلاثة وعشرون عامًا، قضى منها ثلاثة عشر في مكة المكرمة، وعشر سنوات في المدينة المنورة، وبهذه الفترة بُني المجتمع وبُنيت الدولة وصارت في كامل الجزيرة العربية وما حولها، حتى بدأت الدولتان العظيمتان آنذاك تحسب حساب هذا الكيان الجديد، ولم يكن خوفهما من القدرات المادية لهذا الكيان بل من عقيدة تربى عليها أبناؤها؛ رجالاً ونساءً، لم تعرف البشرية أمثالهم، وصور ذلك لا تعد ولا تحصى.

لقد عاش الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم أزمات كبيرة كادت أن تقضي على رسالته، عالجها كإنسان، بإدارة حكيمة، فأزمة شِعب أبي طالب وأزمة الإفك وأزمة الخندق وغيرها، أزمات طاحنة كادت أن تذهب بالمسلمين ورسالتهم عن بكرة أبيهم، لكن سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم كان قائداً فذاً، أدار تلك الأزمات وتحكم بها بعلم ودراية، فهو من يستحق أن ينسب له علم القيادة، وعلم إدارة الأزمات؛ لأنه قد سبق غيره بأكثر من ألف وأربعمائة سنة. وكذلك فعل عمر رضي الله عنه في أزمة المجاعة

[1] أوضحنا ذلك في مقالات نشرت.

التي أصابت البلاد والعباد؛ فأدارها كما تعلم من أستاذه الهادي صلى الله عليه وسلم، حتى أوصل البلاد والعباد إلى شاطئ النجاة.

قدم إمام المتقين صلى الله عليه وسلم في مفاوضات صلح الحديبية سبقًا تاريخيًا ليس له نظير[1]؛ حيث أديرت الغزوة إدارة استراتيجية بعد أن خطط لها صلوات ربي وسلامه عليه؛ تخطيطًا محكمًا، انتهت بمفاوضات كان بطلها وخبير المفاوضات فيها بين علية القوم صاحب الشفاعة صلى الله عليه وسلم؛ فنجحت خططه دون سفك دماء؛ بل أصلح أعداءه وكسب ولاءهم، فهو من يستحق أن ينسب له علم التخطيط الاستراتيجي، وهو الذي أطلق عليه عبارة (السمت الحسن)، والسمت فيه تحديد للهدف البعيد ثم الوصول إليه بأفضل ما يمكن من وسائل.

لقد تجاوز الأمين صلى الله عليه وسلم مفاهيم التخطيط الاستراتيجي، فالاستراتيجيا تكون بحسن التدبير لخمسين أو مائة سنة، لكن فعله إثر ما لاقاه في رحلته إلى الطائف فاق ما تصبو إليه الاستراتيجيا في مداها، فقد رفض أن يُنزل العقاب والعذاب بأهل الطائف بعدما ما آذوه وضربوه، هو ذهب إليهم ليهديهم لما هو أفضل؛ فعرض بضاعته بأسلوب تفاوضي، وهم قابلوه بالأذية وقلة الاحترام، ولما عرض عليه مَلك الجبال أن يقضي عليهم، رفض قائلاً: **بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئًا**، فأي فكرٍ بنائي هذا؟ وأي عقيدة يحملها هذا الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم؟ وهو نفسه الذي قال للناس: **إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليفعل**، فالساعة إذا قامت لم يعد للدنيا بقاء، وكل إنسان سيكون مذهولا بما يحدث وبما ينتظره، إلا أن الشفيع صلى الله عليه وسلم يقول له حتى في لحظة خراب كل شيء، ليكن فعلك وعملك الأمل والإعمار، أمام هذه النظرة تسقط كل أبعاد الاستراتيجيات التي عرفها البشر.

قدم المتوكل صلى الله عليه وسلم أنموذجًا فريدًا في بناء الاقتصاد؛ حتى لوكان من الصفر؛ كما بدأت دعوته، أو من أشياء بسيطة؛ كما بدأ أنموذج المدينة المنورة، وفي هذا حجة على كل قائد ومخطط في كل زمان ومكان؛ فقد فهم الخليفة عمر بن عبد العزيز ذلك تمامًا؛ وهو الذي استلم الخلافة لفترة لم تتجاوز السنتين والنصف، كان الفساد مستشريًا بكل مفاصل حياة المجتمع والدولة، فأعاد المجد الذي أقامه

[1] أوضحنا ذلك في مقال سابق.

الهاشمي صلى الله عليه وسلم حتى فاض المال عن حاجات المجتمع والدولة، وشهد التاريخ على ذلك، لأنه طبق بأمانة ما تعلمه من مدرسة خير معلم.

قدم المحمود صلى الله عليه وسلم نماذج مالية واقتصادية شكلت أسس قيام أي مجتمع أو كيان، سواء توافرت له الموارد أو لم تتوافر، وكل ذلك بقواعد وضوابط علمية، أثبتتها الممارسة العملية، فلم يقدم صلى الله عليه وسلم نماذج نظرية، بل كان يطبقها بنفسه، وكان المسلمون يطبقون ذلك معه، فمزج الجانب العملي بالنظري ولم يكتف بأحدهما دون الآخر؛ وهكذا يكون تطبيق التجارب الاجتماعية؛ فلا تكون بالممارسة فقط كما فعلت نظم خرّبت مجتمعاتها وسرقت ثرواتهم، الناس ليسوا فئران تجارب ولا أوراق رياضيات مجردة بل هم بشر لهم إحساس وذوق قد فضلهم الله تعالى على جميع خلقه.

قدم الفاتح صلى الله عليه وسلم أنموذجًا في ضبط الفساد وأهله ومحاربته واجتثاثه؛ بينما تعاني أغلب الدول والنظم العالمية من هذا الداء، فلا تعرف له دواء، لأنها ضيعت التربية السلوكية للناس تلك التربية التي حرص عليها صلى الله عليه وسلم في المجتمع المكي فكانت مرحلة تأسيسية لا يمكن تجاوزها، ومنها كان المنطلق إلى مجتمع المدينة المنورة مجتمع الدولة الناشئة.

إن السنة النبوية الاقتصادية هي: **كلّ ما ورد عن رسول الله من قول، أو فعل، أو عمل، أو تقرير، أو صفة، بأثر اقتصادي أو مالي أو إداري**، وما أكثر هذه الآثار، التي تستحق التدوين والدراسة والاقتداء بها.

لقد بني الاقتصاد النبوي على مرحلتين:

- مرحلة مكية لم تكن فيها الدولة قائمة بل كان مجتمعًا يعيش في كنف نظام غير إسلامي وهذا مشابه لحال مجتمعات إسلامية في هذه الأيام تعيش في كنف أنظمة مختلفة المشارب والمذاهب.
- مرحلة مدنية اكتمل فيها بناء الدولة وانتظم.

وهاتان المرحلتان دليل على صلاحية المنهج الإسلامي وتكيفه مع الغير دون تصادم، فالإسلام تعامل مع الحضارات الأخرى على أساس أن: **الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها**؛ فالعلم ملك جميع الناس دون النظر لدينه وعرقه، أما الحضارات الأخرى فقد اصطدمت بثوابت الحضارة الإسلامية ولجأت إلى الصدام معها.

ويعتبر تدوين السيرة النبوية الاقتصادية مرحلة هامة، خاصة في زمن الاختلالات الاقتصادية العالمية هذه الأيام، وضياع خبراء وعلماء الاقتصاد في ثنايا الممارسة الخاطئة التي أتعبت الناس وأفلستهم وضيّعت أملاكهم. فبعد أن ظن الناس أنهم قد ملكوا أسرار الاقتصاد والغنى وظهرت كتب ومؤلفات وبرامج للناجحين في كسب المال؛ فإذ بهم يغوصون في وحلٍ أضاع أحلامهم، فضاع المال وضاعت سعادته وبقي الشقاء والمعاناة.

مرّ تدوين السنة النبوية بمراحل عدة، كانت على الشكل التالي:

مرحلة العهد النبوي: حرص حبيب الرحمن صلّى الله عليه وسلم على حفظ القرآن الكريم وتحفيظه وتدوينه، ولم يُقبض صلى الله عليه وسلم إلا والقرآن محفوظ مكتوب لا ينقصه إلا الجمع في مصحف واحد. وكان الناس يتلقون حديث خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وسلوكه شفاهة يحفظونه في عقولهم. روى أبو سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **لا تكتبوا عني شيئًا إلا القرآن، فمن كتب عني غير القرآن فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمِّدًا، فلْيتبوأ مقعده من النار**. وقد دوّنت بعض السنة؛ مثل الكتب والرسائل الموجهة للملوك والأمراء وغيرها.

مرحلة العهد الراشدي: لم تكن هناك محاولات لحفظ السنة النبوية وتدوينها في زمن الخلافة الراشدة سوى استشارة عمر رضي الله عنه أصحابه في ذلك وبقي يستخير الله فيها شهرًا ثم أصبح يومًا وقد عزم الله له فقال: **إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قومًا كانوا قبلكم كتبوا كتبًا، فأكبّوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبدًا**.

مرحلة التدوين في العهد الأموي: بسبب اتّساع رقعة الدولة الإسلامية في زمن الخلافة الأموية، صار المسلمون بحاجة ماسّة للاطلاع على سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، فأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بتدوين الحديث وجمعه، حرصًا على حفظها وتنقيتها من أية شوائب محتملة.

مرحلة تدوين المؤلفات في علم الحديث: وُضعت المؤلفات في علم الحديث كالجَرح والتعديل والناسخ والمنسوخ وغريب الحديث وغيره؛ فكانت كتب: الجوامع، والسنن، والمصنفات، والأسانيد، وغير ذلك. وخضعت السنّة النبوية إلى العديد من عمليات المراجعة على مرّ الأزمنة والعصور، فبوبت الأحاديث وجمعت فوائدها وأحكامها لتكتمل عملية التدوين التي استغرقت أربعة قرون تقريبًا.

ونحن نعيش شهر مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم، نُصدر هذا العدد وهديته (كتاب السنة النبوية الاقتصادية) بحمد الله وفضله؛ فصلى الله عليك يا رسول الهدى، أحببناك ولم نرك، اتبعناك ولم نشهدك، نطمع أن نكون ممن يجتمعون على حوضك يوم العطش؛ لنشرب من يديك الطاهرة شربة لا نظمأ بعدها أبداً .

حماة (حماها الله) بتاريخ ٣ ربيع الثاني ١٤٤٢ هـ الموافق ٢٠ تشرين الأول / اكتوبر ٢٠٢٠ م